أمثلة من الترجمة

Ulrich Raulff

Das letzte Jahrhundert der Pferde.

Geschichte einer Trennung.

C. H. Beck Verlag, München 2015

ISBN 978-3-406-68244-5

صفحات **7–23**

Ulrich Raulff

الوداع الطويل

أولريخ راولف

ترجمة : ابراهيم مرازقة

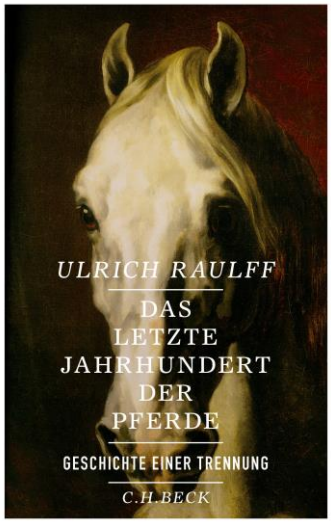

© 2015 Atlantis Verlag, Zürich / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

من ولد في المناطق الريفية في منتصف القرن الـ20 ترعرع في عالم قديم. لم يكن هذا العالم يختلف كثيرًا عن ما سبقه بمئة عام. فبنية الحياة الزراعية بطبيعتها متثاقلة، وإيقاع الريف يجري بشكل أبطأ. أما أطفال المدن فقد بدت لهم البيئة المحيطة بشكل مغاير. كانت متأثرة بالماكنات — والدمار الناتج عن آثار الماكنات التخريبية. ذلك البطء في نمو الريف أجل قفزته إلى الحداثة التقنية بنحو قرن كامل. لا شك في أن عدد الماكنات المستخدمة هناك قد ازداد، وقد كان وجودها في هذه المناطق في منتصف القرن الـ19 استثناءً نادرًا وغالبًا ما كان لأغراض تجريبية. بالإضافة لذلك فقد أصبحت أصغر حجمًا، وأكثر عملية واعتيادًا، ولم تعد تبدو مثل معدات حصاد العصور الوسطى أو الديناصورات في جوراسيك بارك. صرنا نجد كثيرًا منها تَجُرّه جرّارات صغيرة، وهي معدات لم يعرفها القرن الـ19 إلا في حالات نادرة كماكنات ذات محركات بخارية. بلغت قوة دفع الجرّارات في منتصف القرن الـ20 ما بين الـ15 و20 قوة حصان، وكانت لها أسماء قصيرة يسهل حفظها، مثل فنت (Fendt) أو دويتس (Deutz) أو لانتس (Lanz) أو فاون (Faun)، وكانت تدهن كلها باللون الأخضر، عدا حالات استثنائية مثل اللانتس الرمادي. وعندمت ننظر لها الآن تبدو وكأنها جنادب هشة، مقارنةً بالجرارات العملاقة التي وصلت قوتها اليوم إلى 200 قوة حصان والمزوّدة بمقصورات عازلة للصوت.

لكن باستثناء التطور الميكني هذا، والذي تنافرت حركته العنيفة والضوضاء الناجمة عنه مع الصورة الرومانسية للقرن الـ19، لم يتغير الكثير في الريف. فقد ظلّت الخيول وسائل النقل والجر الأكثر استعمالًا والأكثر شيوعًا، سواء كان ذلك في الشوارع الضيقة والملتفة أو على منحدرات الأنهار وتلعات الغابات: خيول بلجيكية ثقيلة، وخيول تراكينر قوية، وخيول هافلينجر أصيلة. يغلب على ذكرياتي الشتوية بخار زفيرها وخاصراتها المتقدة، وتنبعث من بين ذكرياتي الصيفية رائحة فروها البني وأعرافها الناصعة. ما زلت أشعر بذاك الامتعاض الذي أصابني عندما رأيتهم يدقون أربعة مسامير

© 2016 Litrix.de

مربعة الشكل في ما ظننته بطن قدمها، لكي ينعّلوها. لم أر من قبل مشاهد بمثل هذا العنف المريع إلا في الكنائس، وبالتحديد برسومات تصوّر آلام المسيح. فكلما سمعت أحدهم ينطق بكلمة "نعّل" بالألمانية (beschlagen) وهي تعني بالمجاز أن يكون المرء ضليعًا بشيء ما، أفكر فورًا بمنظر المسامير المربعة.

احتلت غرف مبيت الخيل الأماكن الأكثر نبلًا—وإن كانت الأصغر حجمًا—في اسطبلات الفلاحين الذين استمروا في العيش على ما تدره الأرض ولم يتركوا مزارعهم المتواضعة لقاء أماكن عمل في المصانع. أخذت البقر والثيران والعجول والخنازير والدجاج مساحة أوسع، وكانت تصدر روائحًا أبشع وأصواتًا أعلى، كانت باختصار رُعاع الاسطبل. أما الخيول فكانت نادرة وباهظة الثمن وذات رائحة جملية، وكان أكلها أكثر أناقة ومعاناتها أكثر هولًا، خاصة مغصها الذي كان مرعبًا. كانت تقف في حجراتها كالدمى، تهز رؤوسها الجميلة وتعبر عن عدم الثقة أو الشك من خلال حركة آذانها. كانت للخيول حقولًا خاصة، لا تدخلها بقرة، ولا تقترب منها الخنازير ولا الإوز. لم يفكر أي فلاح أبدًا بأن يصوّن مراعي الخيول بالأسلاك الشائكة التي كانت تحبس البقر وخاصة الخرفان. فمع الخيول يكفي بعض الخشب أو سياج مكهرب. النبلاء لا يُحبسون، بل نذكرهم بوفائهم لتعهدهم بعدم الفرار.

أتذكر ذلك اليوم من أيام الخمسينيات الذي وقفنا فيه، أنا وجدي، نُطلّ من على تلة على مزرعتنا، على الريف المتسع حولها وحتى غابة نفضية بعيدة تمتد من خلالها طريقًا ضيقة تصعد الى أعالي الجبل. كان يخترق سكون الريف حينها ضجيج يتعالى مما شابه نملة حدباء تصعد بصعوبة على الجبل. كلما اقتربت منا بانت ملامح النملة اكثر فاكثر، حتى تعرفنا عليها، إنها مرسيدس ديزل. كانت ملك عمي. اقتربت منا المركبة الثقيلة بوقار اولمبي. أبدى جدي ملاحظة مستهترة بالديزل وجاء فيها كلمة "صندوق الدرس". تابع بشك متزايد كيف ترك ابن عمي الجالس خلف

المقود الطريق المعبدة وتوجه الى صوبنا مباشرة. فقد السيطرة على مركبته بعد بضع امتار فقط من السير على العشب الرطب، انطلقت جانبًا، ثم انزلقت واندفعت باتجاه السياج المكهرب الذي كان يحمي الخيول، حتى اوقفها جذع شجرة أخيرًا. أحاطتها غيمة زرقاء قاتمة. وعندما انقشعت الغيمة، ظهر الأولمبي، وكان يطلق البرق تلو الآخر الى الداخل، فتحول السياج الكهربائي الآن الى قفص فاراداي، وصار يوصل كل دفعة كهربائية الى سجينه عبر القطع الحديدية العديدة المبنية منها المركبة.

بعد فشل كل محاولات السائق لتخليص نفسه من المركبة، دخل حصان بلجيكي ثقيل المشهد بدور المنقذ في ساعات الضيق. تم ربطه بعارضة الاصطدام الخلفية للديزل، وسحب هذا العملاق الطيب المركبة الآلية المعطلة الى الارض اليابسة بقوى جبارة. كلنا نعرف رسمة وليام ترنر التي يصوّر فيها قاربًا بخاريًا يتصاعد منه الدخان وهو يجر سفينة حربية شامخة بأشرعتها المرفوعة الى مرساها الأخير في ميناء لتكسير السفن. قَلَب القدر بسخريته المعهودة صفحة التاريخ مرة أخرى: فمن سحب المركبة الآلية في هذه الحالة كان حصان العمل، وقد تحوّل الجواد الى حصان عمل بعد أن جرّده التاريخ من دوره كحصان حرب. وبهذا أُجبِر العالم القديم مرة أخرى على العمل الشاق من أجل ولادة الجديد.

وبالفعل فقد حُسم الأمر في اللحظة التاريخية هذه: دخل كل من الإنسان والخيل في طريق مختلف. وبما أن الإنسان فضّل في المستقبل نقل ذويه بالسيارات فقد قام بتمهيد الطرق وتعبيدها. فتم تجاوز الخيل حرفيًا. فصارت الخيول من أولئك الذين دهسهم التاريخ الى حتفهم، كما وصفتهم كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (roadkill of history). لقد صوّرت البشرية المهزوم على مدى قرون في خيالها كمن سقط تحت حوافر المنتصر؛ أو صوّرت الأخير كمن ركب الأول.
اكتشفت الخيل الآن أن التاريخ قد ركبها في زمن الانتقال من القرن الـ19 الى الـ20، او حتى أنه دهسها. لقد ساعدت الخيل الإنسان على مدى التاريخ المسجل على الانتصار على عدوه، أي

البشري الآخر. والآن وجدت نفسها على جانب الطريق ورأت المنتصر يمر عليها مر الكرام. لم ينازع البارود على مدى ستمائة عام الخيل على مكانتها كأهم أداة حرب بالنسبة للإنسان، ولكن كانت مائة عام من مكننة الحرب كفيلة بإلغاء دورها بالكامل. أصبحت الخيل احدى مهزومي التاريخ الحديث.

قد نتخيّل عملية الفصل بين الانسان والخيل، بين القوة الحيوانية والقوة الميكانيكية، بأنها سارت بشكل بسيط وسلس، إلا أنها في الواقع لم تكن كذلك. الانسان لم يكن في يوم راكب خيل وعربات تجرها الخيل وباليوم التالي صار سائق سيارات وشاحنات. لقد تمت هذه العملية في عدة مراحل واستغرقت مدة قرن ونصف لتنتهي: من بداية القرن الـ19 حيث كثرت تجارب تقنية في مجال المركبات المدفوعة بالمحركات البخارية ومجال اطارات النقل الى منتصف القرن الـ20 حيث تجاوزت أعداد مركبات الدفع الاوتوماتيكية المزوّدة بمحركات احتراق أعداد الخيل، ولم يكن تجاوز الخيل بالأعداد فقط. والمفاجئ في الأمر أن استعمال الخيول ازداد خلال هذه المراحل المتعددة بدل ان يقل كما هو متوقع. يبدأ تراجع استعمال الخيول في الفترة الواقعة بعد الحرب العالمية الثانية فقط، ولكن كانت وتيرة التراجع عالية جدًا. اذن فإن القرن الأخير في عهد الخيول ليس فقط قرن خروجها من التاريخ البشري بل مرحلة بلوغ الذروة كذلك: فاق اعتماد البشر على الخيول في الحقبة التي بدأت تقرقع فيها لأول مرة محركات الاحتراق في مانهايم وكانشتات على اية حقبة سبقتها.

عندما أُشير احيانا الى فترة القرن ونصف بأنها قرن الخيل الأخير فسبب ذلك ليس كسل فكري او لأنها أكثر وضوحًا. تتزامن هذه الفترة مبدئيًا مع ما يسمى منذ زمن بعيد القرن الـ19 الطويل: اذ يبدأ مع نابوليون وينتهي مع الحرب العالمية الأولى. وقد تغيرت منذ ذلك الحين كل الانظمة التقنية التي استَعمَلَت الخيل كقوة الجر. وتم استعمالها في مجالات متعددة: من حركة السير الى الجيش.

واستُبدِلت هذه القوة الحيوانية بمحركات احتراق او محركات كهربائية في كل هذه الانظمة التقنية. تستمر عملية التحوّل والتبدّل فعليًا الى مدة طويلة جدًا. ومع كل ما في ذلك من وحشية إلا أن الحربين العالميتين سببتا ازديادًا عاليًا جدًا في استعمال الخيول. ولم يبدأ التناقص في اعداد الخيل في اوروبا الا بعد منتصف القرن الـ20 بسبب توفر قوى جر كافية وبأسعار زهيدة. أصبح الفصل في تلك اللحظة ليس بشيء مقرر فحسب، بل شيئًا متممًا أيضًا.

يبدو الافتراق بين الانسان والخيل بعيون المؤرخ كأنه الفصل المركزي في تاريخ نهاية حقبة الحضارة الزراعية. كان يسيطر على المشهد العام للحضارات في منتصف القرن الـ20 منظر الحياة الريفية: القرى الفلاحية، الاسواق، قطعان الماشية وحقول الحبوب. وهذا صحيح ايضًا بالنسبة للحضارات الممكننة والمتقدمة تقنيًا في العالم الغربي. فإن رجعنا بالزمن خمسين سنة اضافية الى بداية القرن الماضي فستظهر دراما الخروج من المشهد الباستورالي للطبيعة امام اعيننا بشكل أوضح. إذ يكتب الفيلسوف ميشل سيرس، "كان يعمل في عام 1900 معظم البشر على كوكبنا في قطاع الزراعة والتغذية. أما اليوم فلا تتعدى نسبة العاملين في هذه القطاعات في فرنسا ودول مشابهة واحد بالمئة من السكان. يجب على المرء اذن ادراك ما لا شك فيه وهو أننا لم نعهد شيئًا مشابهًا لمثل هذا التحول منذ العصر الحجري الأخير."

بالإضافة لذلك يجب على المرء تأريخ مرحلة وداع الخيول كمرحلة خروج الانسان من العالم التناظري اذا اخذنا بعين الاعتبار التحولات الجذرية في طبيعة العلاقات العملانية والحياتية في الدول المتقدمة صناعيًا. لقد اطلق نيتشه تعبير موت الله على احدى التجارب الاكثر مربكة بالنسبة لمعاصري القرن الـ19، ويندرج تحت هذه التجربة فقدان المجال المتسامي والذي كانوا يؤمنون به بلا تشكيك: احسّ البشر بأنهم يفقدون الحياة الآخرة. أما معاصرو القرن الـ21 فيتعايشون مع قلق مشابه: انهم يفقدون الحياة الدنيا.

سيكون الشعور بهذا الانفصام اكثر دراماتيكية بطبيعة الحال في حالة بلد ذي تراث زراعي غني مثل فرنسا. فلم تغب معاني العالم القديم فيه في غياهب النسيان، وكلمة الحضارة تعني بالنسبة للرومان بالاساس حضارة الارض والزرع والنبيذ. فآلهة النبيذ والفاكهة قد انسحبت واختفى معها عالم وحياة البشرية القديمة. أصبح وداع الخيول علامة تشير الى فقدان العالم الريفي والزراعي. "إني انتمي الى شعب منقرض"، يشتكي الأديب وناقد الفن جان كلير. "كنا عندما ولدت 60% من مجمل السكان الفرنسيين. أما اليوم فنحن لا نتعدى الـ2%. سيقر العالم في يوم من الايام ان القرن العشرين لم يكن قرن صعود البروليتاريا بل قرن اختفاء الفلاحين." اختفى الفلاحون ومربي الماشية، وذهبت مع الفلاحين—وأحيانا قبلهم—الحيوانات: "كانت الخيول أول من انصرف، وذلك في الخمسينيات. اصبحت عديمة الفائدة واختفت إلى الأبد".

ستبدو عملية الافتراق بين الانسان والخيل من خلال منظار فلسفة التاريخ على أنها فض جماعة منفردة قد ترابطت ببعضها بواقع العمل: لقد انجزت هذه الجماعة—وإن كان بشكل مفروض من طرف واحد على الآخر—ما سماه هيغل بعمل التاريخ. إنها بالفعل مصادفة غريبة—مما يدعو الى التأمل والتفسير—أن الحقبة التي تم بها فض هذه الجماعة القديمة هي بالضبط الحقبة التي تفصل ما بين الزمن الذي أدّى به هيغل "المحاضرات في فلسفة التاريخ" وبين منتصف القرن الـ20، وهي فترة نشأت بها للمرة الأولى نظريات تنادي بفكرة "نهاية التاريخ". أنها بالضبط خمسة عشر عقدًا من الزمن التي شهدت انتهاء عهد الخيول، منذ ظهورها في بدايات القرن الـ19 حتى ختامها في منتصف القرن العشرين. وتتصادف هذه الحقبة ايضًا مع الفترة ما بين 1807 عندما خاطب هيغل قيصر الفرنسيين باسم "روح العصر على حصان" الى ارنولد غيلين الذي طوّر نظريته في خمسينيات وستينيات القرن العشرين حول "post histoire" (ما بعد التاريخ).

لقد فرّق الفيلسوف والانثروبولجي غيلين بين ثلاث عصور: فقد أعقب حقبة ما قبل التاريخ التي استمرت لمدة طويلة جدًا عصر التاريخ الذي هيمنت عليه الحضارة الزراعية والذي انهته الحضارة الصناعية والدخول في الحقبة الثالثة وهي عصر ما بعد التاريخ. عندما تحدث للمرة الأولى عن عصر الخيول، فرق المؤرخ راينهارد كوسيليك بين ثلاثة عصور ايضًا، فيما يبدو وكأنه مبني على نموذج غيلين: يمكن تقسيم كل الوقت الذي مضى الى حقبة ما قبل عصر الخيول، عصر الخيول وما بعد عصر الخيول. لقد كان المؤرخ على استعداد لتقّبل بساطة التقسيم هذا لأنه يُرجى منه منظور جديد الى تاريخ العالم: "ولأنني أعلم أن كل تحقيب مرتبط باسئلة منظورية ومنظِّمة، لذلك فأبحث عن معيار يقوّض كل التحديدات التي تفرق بين التاريخ القديم، الأوسط والحديث."

أشارك كوسيليك الرأي في محاولتي هذه لدراسة نهاية عصر الخيول وتوقعاته كذلك. ولكني أختلف عنه بأني اوجه النظر الى ذلك الحيز الضيق نسبيًا وهو المرحلة الانتقالية التي حدث فيها هذا الخروج الخاص من التاريخ. تاريخ عملية إزالة الخيول—كما سماها ايزاك بابل—لها أمدها الخاص وتأثيرها التاريخي. وقد تمت كسلسلة من عمليات انفصال وتحوّل التي استمرت الى اكثر من قرن وبمنظور معين لم تنته الى يومنا هذا. لم يُلقِ عصر الخيول بظله على سردية كوسيليك من عام 2003 فقط. فهو موجود ايضًا في قصصنا، صور من حياتنا اليومية وبتعابيرنا اللغوية. وبالفعل فإن نهاية عصر الخيول استمرت لمدة طويلة نسبيًا وتضم وفرة من الوقائع والمشاهدات من مجالات الواقع التي قد تختلف عن بعضها كل الاختلاف. لا يوجد اي كائن حي وتاريخي، فيما عدا الانسان، الذي يحتاج الى كتابة histoire totale (تاريخ شامل) مثل الخيل.

بالإمكان سرد روايات عديدة ومختلفة كل الاختلاف التي يلعب الحصان بها الدور الرئيسي: روايات ذات طابع تقني، روايات تتعلق بالمواصلات، روايات ريفية، حربية ومدنية، وروايات حول الطاقة. ولكن يتخلل هذه الروايات "الواقعية" تاريخ آخر لم يتم سرده للآن: روايات تتعلق بالعلم

والرمزية، تواريخ تتخصص بالفن، الأفكار والمفاهيم. وحتى أكثر انواع التأريخ معاصرة، وهو الـsound history، اي تاريخ المعالم الصوتية لعوالم انقضت، سيجد في الخيل موضوعًا مثيرًا للبحث. كل هذه السرديات معقولة ومقبولة. كل الخيول التي كتب عنها موجودة. قد تكون الخيول نتاج التهجين والتربية، موضوعات للبحث او موضوعات للفنون. ليست اي هذه الكائنات اكثر واقعية او حقيقية من الأخرى: رسمة على جدار، استعارة أو خيال حلم ليست أقل واقعية من كائن من لحم ودم. يعيش التاريخ من هذا وذاك – وهذا صحيح ليس فقط بالنسبة لتاريخ الخيول. قال جولس ميشيليه ذات مرة أن التاريخ بدا له في بداياته ماديًا بما لا يكفي وروحيًا بما لا يكفي. هذا هو الرهان الذي يجب اخذه عند كتابة تاريخ الخيل، والذي يجب ان يجمع ما بين الشقين: المادي والحسي – وفي نفس الوقت الروحي، أو كما يسمى اليوم، الفكري.

* * *

إن بداية عصر الخيول عبارة عن تناقض، وهو التناقض الأولي لكل هذا تاريخ. يستحوذ حيوان ثديي ذكي، وهو الإنسان، على حيوان ثديي آخر، وهو الحصان. إنه يروّضه ويربيه، يقيم علاقة صداقة معه، يستعمله من أجل تحقيق اهدافه. والعجيب في الأمر أن هذه العلاقة تستمر حتى عندما تكون أهداف الإنسان معاكسة لطبيعة الزميل ذي السيقان الأربعة. يختلف الحصان عن الإنسان لأن الحصان هو "حيوان هرب". فعندما لا يتنافس مع ابناء جنسه في امور جنسية (الأحصنة المتصارعة المشهورة) فلا يبحث لا عن الحرب ولا عن الصراع؛ غريزة الفريسة غريبة عن هذا الحيوان النباتي. السرعة التي تمكنه من الهرب هي الوسيلة التي تحميه من تهديد الصيادين وآكلي اللحوم. وهذه بالضبط النقطة التي لفتت اهتمام حيوان ثديي آخر، ألا وهو اهتمام الإنسان. لم تدخل الخيل في البداية الى بقعة الضوء في حياة البشر ومن ثم الى مركز تاريخ البشرية، كمصدر للبروتين. وبقيت الثيران والحمير في دورها كحمّالة ونقّالة في الفناء الخلفي للتاريخ، على بوابة

الموردين. تبلغ صورة الحياة المتبادلة والمتكافلة بين الخيل والبشر منذ البداية قمة سلم التبادل والتكافل بين اي حيوان والانسان، وستبقى في هذه المكانة، بالرغم من بعض نجاحات الجِمال والفيلة، لمدة ستة آلاف سنة دون منازع.

أهم الإنجازات التي تدخل التاريخ مع الخيول هي السرعة؛ اوزفالد شبنغلر رأى ذلك بكل وضوح. ارتبطت تجربة التسارع القوي والسرعة العالية لمدة ستة ألفيات بالخيل، وفي الفضاء العربي بالجمال ايضًا. أن تكون سريعًا كان معناه أن تكون ممتطيًا – إنها تجربة تاريخية التي تم نسيانها بعد خمسة أجيال منذ اختراع السيارة واربعة اجيال بعد الطيران الميكانيكي. الحصان كان ماكنة السرعة دون منازع. كتلك مكنت الإنسان من السيطرة على اراض ومناطق التي لا يمكن تخيلها من دون هذه الماكنة. كان من الممكن احتلال مناطق شاسعة بفضل الخيل، تأسيس مناطق نفوذ واسعة، وأكثر من ذلك، لقد مكنت الانسان من حمايتها والحفاظ عليها. شبنغلر يسمي ذلك، مقترنًا بنيتشة، السياسة العظيمة: وفّرت الخيل تاريخيًا إمكانية ممارسة سياسات القوة والاحتلال على نطاق واسع. تحوّلت الخيل بدورها كماكنة سرعة الى آلة حرب من الدرجة الأولى؛ ووفَّرت الخيل كحيوانات تختصر المسافات إمكانية التواصل عبر مساحات شاسعة. تحوّلت الخيل كحيوانات قابلة للترويض والتربية، كحيوانات سريعة قابلة للتحكم، بكلمة واحدة: تحوّلت الخيل كمتجه حيواني الى حيوان سياسي والى أهم مرافق للجنس البشري.

وبذلك نرجع الى التناقض الأولي. ليس بالنادر أن يتم إجبار هذا المتجه الحيواني على تغيير دوره من حصان ركوب ونقل مدني الى حصان قتال حربي. كثيرًا ما يُجبَر آكل النبات هذا على إنكار غرائزه ومرافقة الإنسان في المعركة في سبيل إخضاع أعداءه. يجبر حيوان الهرب الهلوع هذا على أن يصبح تجسيدًا للهلع والذي بدوره سيجبر الحيوان المفترس الانسان على الهرب بالأفواج: من يرغب بالسقوط تحت العجلات او—لنكون اكثر دقة—تحت الحوافر؟ إن استخدام حيوان الهرب

كسلاح جسدي متفوق في معركة الحيوان المفترس الإنسان ضد ابناء جنسه فهذا هو بالضبط ديالكتيك عصر الخيول. وقوس الإثارة لقصة العهدة القنطورية مبني حول هذا الديالكتيك.

مقارنة بهذا الحلف فإن كل التحالفات التي ابرمها الإنسان في تاريخه كانت هشة وآنية، لم تكن حتى علاقاته بآلهته وطيدة لهذه الدرجة. ولهذا فجاءت نهايته أكثر ملفتة: بدأ السقوط المدوّي بلا محالة باللحظة نفسها التي وصل بها هذا الحلف الى ذروة الإلتحام والحيوية. لقد تفكك الى مكوّناته الأساسية دون ضجة تذكر ودون ان يلفت انتباه المعاصرين لهذه اللحظة. سقط البطل الدرامي العظيم هذا، وانتهت ستة ألفيات من جماعات قنطورية دون مغنى او موسيقى. ما حدث بعد ذلك لم يكن بمسرحية حسية شبقة: بينما دخل الطرف الأول—الطرف البشري من الحلف—في أحلاف قصيرة الأمد مع ماكنات من كل الانواع، كالسيارات والطيارات والحواسيب النقّالة، تم إحالة الطرف الآخر الى التقاعد التاريخي ليلعب أدوارًا جديدة مثل جهاز للرياضة والعلاج، كرمز للعز والكبرة ودور مساعد البطل في خيال الصبايا المراهقات. تعود الخيل لتظهر في مربعها القديم ككائنات مفزعة في حالات نادرة، مثلًا عند قمع مظاهرات العمّال او طرد المحتجين من المناطق التجارية.

حظيت الخيل في القرن الـ19 بسيرة أدبية وأيقونة عظيمة وذلك بالتوازي مع ارتقائها الأخير وسقوطها. كانت معظم الروايات العظيمة في آخر قرون الخيل التي يدور مسرح احداثها على اليابسة وليس على البحر، كانت روايات خيل. فتخللتها الدالات الأدبية الى الخيل وقصص الخيل كالأوتار والشرايين. وهذا صحيح بالنسبة للكُتاب الاكثر مدنية في ذلك الوقت، ومنهم ستندال وبلزاك وفلوبير وتولستوي وستيفنسن. كل الافكار العظيمة التي تخيلها القرن التاسع عشر ترجع بالتالي بعد طريق طويلة او قصيرة الى الخيل، بيد أن تخيلها هذا القرن كمحركات التاريخ: الحرية، العظمة الانسانية، الرحمة، أو تخيلها كقوى جارية تحت ارضية التاريخ التي زعم المعاصرون أنهم

اكتشفوها، الرغبة الجنسية، اللاواعي، اللامألوف. بالطبع فإن الخيل ليست أبا الهول. ولكنها مع ذلك مجازًا يحمل صور وأفكار القرن الـ19، فقد كانت تقوم بدور المساعد على التفكير، معالج النطق. حينما كان يفقد معاصرو القرن الـ19 القدرة على التقدم بتفكيرهم او التعبير عن شعورهم فكانوا يلجئون الى الخيل: كانت بمثابة حيوان الهرب من المآزق الفكرية وكان حمّال همومهم.

تجري في خلفية قصة الفراق التي سأرويها على الصفحات القادمة عملية تسامي. بنفس الدرجة التي بدأ يتفكك بها العالم القديم والمتين الذي هيمنت عليه الخيول والعربات والفرسان وذلك تحت ضغط الحضارة المتجهة نحو المكننة، فقد بدأت الخيول تكتسب حضورًا خياليًا وتصوريًا أقوى فأقوى: أصبحت اشباح الحداثة، وكلما ضعف حضورها في العالم اكثر، زادت من إمداد خيال تلك البشرية التي ابتعدت عنها. ربما هذا هو الثمن الذي علينا دفعه مقابل "الخسارة العظيمة لتراث تاريخي بريء"، كما شكى هرمان هايمبل في مؤتمر المؤرخين في عام 1956 في مدينة أولم: "مع كل حصان يختفي الوضع الذي كان لا يزال يربط بين زمننا وزمن كارل الكبير (شارلمان)."

عندما ينتهي عهد يمكن – بحسب ماركس، الذي ينقل عن هيغل – للدراما التاريخية ان تعود مرة أخرى ككوميديا. وهكذا مرّ عصر الخيول في غسق نهايته بتوهّج كوميدي أخير. وتجسّدت الملهاة بـ *ذيل فرس يميل إلى الإحمرار* الذي يهتز تارة الى الاعلى وتارة الى الاسفل، في حين طرق باب التاريخ خلف الخيل واقفل. لقد كانت السنة 1957 حسب التقويم الميلادي، ونشرت في هذه السنة رواية ماكس فريش "هومو فابر" (الانسان الخلّاق). لقد انتهى عصر القناطير الثقيل وبدأ العصر الفتي لبنات المدارس الأمازونية بسراويل رعاة البقر (الكاوبوي) وعمل الكاتب جاهدًا على ملامح هذا العصر: "ذيل فرس أحمر يتمايل على ظهرها، تحت كنزتها السوداء لوحيّ كتفها، الحز في ظهرها الضيق الرشيق، ثم خصريها والفخذين الفتيين في بنطلون اسود مشمور الى عضلة الساق، الكواحل" – ولكن تتقزم كل الصفات الثانوية، الظهر، الخصر، عضلة الساق، الكاحل، مقارنة

بوسام النصر المتأرجح الذي يجمع بين البراءة والحيوانية. سوف تمر سبع سنوات قبل ان يجهز *الموستانغ* وهو الآلة الملائمة للسفر نحو الغرب. وبذلك تتأرجح وتهتز في هذه اللحظة علامات تاريخية تعلن عن انتهاء حقبة قديمة وبدء حقبة جديدة.

* * *

بدأت الانجازات العظيمة التي قدّمتها الخيل في زمن العهدة القنطورية تدخل غياهب النسيان في زمن ما بعد عصر الخيول. بالفعل فإن الخيل ليست الpart maudite في تاريخ، أي جانبه المنبوذ والمرفوض، بل إنه الجزء المنسي فحسب. ولكنه جزء عريض ومتشعب ومعقد: فيشدك إغراء كبير الى سرد كل التفاصيل والاعتبارات المتعلقة بتاريخ الخيول بنفس واحد، الى الانكباب على والاعتكاف بين الوقائع والافكار، بين الروايات وأحصنة التدريب، بين الألجمة ودوافع الأقدار. قد يكون هذا الشيء مشوّقًا من الناحية الجمالية، ولكنه ليس عمليًا. سأروي القصص بترتيب يحاكي قوانين الإرداف الصحيحة من أجل الحفاظ على نظامية معينة. وسيتم ذلك في أربعة فصول طويلة.

سأروي في الفصل الأول سرديات واقعية: عن المدن، الشوارع والحوادث، عن اطباء الريف والفرسان، عن الفضاءات، الطرق والطاقات. في الفصل الثاني تاريخ المعارف: عن أشكال المعرفة حول الخيليّات، التشخيصات، الخبراء، المربين، الرسامين والباحثين الذين عرفهم القرن الماضي والذين غابوا جزئيًا—إن لم يكن كليًا—في النسيان. في الفصل الثالث سرديات الاستعارات والصور: التمثيلات التي استعملها القرن الـ19 ليطوّر أفكاره حول القوة، الحرية، العظمة، الشفقة والإرهاب. تتعاكس بهذا الترتيب الاقتصاديات الثلاث التي لعب في اطارها هذا الحيوان دوره القديم المركزي كمحرّك، محوّل للطاقة، للعلم والاحساس. سأجمع وأروي أخيرًا في القسم الرابع والأخير قصص تاريخية حول الخيول والبشر التي سمعتها، قرأتها أو خضتها. سأنظمها قدر المستطاع بواسطة

الالتزام بالخطوط التي رسمتها الإقتصاديات الثلاث، سأستعرض مثل غيري من المؤرخين الخيل وتاريخها، وسأقدم اقتراحاتي الخاصة بخصوص هذه الروايات.

حول أي محور يجب أن تدور هذه السردية؟ هل يجب رويها كمأساة أم ملهاة؟ كارتقاء ام كسقوط؟ كنقد ثقافي ام كعرض بنيوي وممتع؟ قد يبدو من الملائم ان تأخذ هذه السردية شكل الوداع لأنها تروي قصة فراق. اليس معنى ذلك وداع عالم إنساني، حضارة قريبة من الطبيعة، ثقافة راقية مصقولة، عالم تناظري؟ ولكن سبق وذكرنا أن الوداع قد تم منذ وقت بعيد، وهذه الرواية قد انتهت قبل نصف قرن. ألا يدفعنا هذا الوضع إلى وضع الرواية بالشكل الدرامي، ألا وهو شكل الخاتمة؟ كلا الشكليْن مغريين، ولا شك في فاعليتيهما الدرامية. انهما يخاطبان المشاعر ويقدمان الكثير لها، ولكن ماذا عن المعرفة؟ من الأفضل أن يختار المرء في حالة الشك هذه أشكالًا اكثر انفتاحًا وهشاشة، إن كان يريد معرفة كيف حصل هذا التاريخ وأي دروس يمكننا تعلمها منه. الزيادة في مقارنات والتقليل من الأحكام القاطعة.

بالنسبة للأحكام قاطعة، فإن تاريخ الخيول ليس جاهزًا لها على كل حال. كتبت أعلاه أن الموضوع يستدعي تاريخًا شاملًا، وبذلك ذكرت ما كنت اتصوره في مرحلة متقدمة من بحثي في هذا الموضوع. كم جهلت عندها الاشباح التي استدعيتها! أسالت الخيل انهارًا من الحبر وكونت محيطات من الأدب المطبوع. لن ينجو أي تركيب مثل الذي سأقدم عليه في هذا الكتاب من متاهات المطبوعات؛ الارشيف سيبقى حلمًا بعيد المنال. الخيل لم تلد في طروادة، بل في الاسكندرية؛ ومن تعمّق في الأشكال التصويرية والنصية للخيل التي استحوذت على عقول الفنانين والكتاب والعلماء، بل واستوطنت فيها حتى الجنون، سوف يواجه صعوبة في استحضار ذاك العالم الخشن المتوحش للإسطبلات، مدارس الفروسية والمراعي.

ولكن هذا ليس كل شيء. الإشكاليات المعرفية أعمق من ذلك لدرجة التشكيك في إمكانية عرض الموضوع. من يكتب تاريخ الخيول لمدة سنتين او ثلاث فسيجد طبقات كثيفة من النصوص المختصة بدور الخيل في سياقات ثقافية مختلفة ومتشعبة جدًا. وسيكتشف مع كل خطوة في بحثه أنه يسير فوق هاويات من الإشكاليات البحثية، والتي لا يمكنه استعراضها بشكل اجمالي، فما بالك صياغتها وعرضها للقارئ. لا يمكن اختصار مئة عام من البحوث الانثربولوجية الشمال-امريكية في تاريخ الهنود الأمريكيين بمجرد بضع صفحات. كثيرين هم الذين بدأوا البحث في الموضوع مثل فرانتس بوأس، ولكنهم انتهوا مثل كارل ماي. يعرف كل مؤلفي الكتب المتخصصة بالتراكيب التاريخية هذه المشكلة العامة، أي عدم وجود ارضية بحثية ثابتة، وخاصة كُتاب التاريخ العالمي. سأكشف قدر المستطاع عن كل أوراق اللعب بسلسلة من الملاحظات الهامشية العديدة التي سأزوّد النص بها. ومع ذلك فهذا لا يجيب عن السؤال، بل يلتف عليه؛ فبدلًا عن امتلاك اجابة شافية سيوضح هذا ما اصبوا اليه. وكلما علا صوت ثرثرة خطاب البحث والأدب المختص في الموضوع، كلما جلى من الجهة المقابلة سكوت بطل الرواية الحقيقي: الحصان يبقى ساكتًا.

Le cheval n'a pas de patrie، ليس للحصان من وطن، قال مارشال نيه، ولكن الم يحن الوقت لنمنحه حق البقاء في سردياتنا حول الماضي؟ راودتني فكرة كتابة تاريخ القرن الـ19 الطويل منذ سنتين، ولكن لم أرد لمحوره أن يكون الأبطال المعهودين، نابليون ومترنيخ أو حتى بسمارك، بل البطل والشخصية المركزية لهذا القرن، ألا وهو الحصان. حلمت حينها بأن أساعد هذه الشخصية التاريخية لتتحدث بصوتها وكلماتها. لم يفشل هذا الحلم بسبب غموض الموضوع او قلة التفاصيل، بل بالعكس بسبب مخزونات زائدة من الخطابات. فالمرء لا يكتب من داخل الاسطبل، بل من المكتبة. والعديد من الكُتاب المتعاطفين والمتشاعرين مع الخيل تركوا الدور الرئيسي لها او ووهبوها الضمير المتكلم المفرد في رواياتهم. ومنهم ثيئودور سيداري Mémoires d'un cheval d'escadron, dictées par lui-meme، باريس 1864)، جون ميلز (Life of a Racehorse، لندن 1865)، انا

سيويل (Black Beauty، لندن 1877)، ليف تولستوي (خولستومير، 1886)، مارك توين (A Horse's Tale، 1905) د.هـ. لورانس (St. Mawr، 1925) ومايكل موبورغو (War Horse، 1982). إلا أنه في هذه الحالة ايضًا لا يترك المرء بذلك المكتبة ابدًا. وذلك لا يعني أنه من غير الممكن التقرّب من الذكاء الخاص للخيول او من مشاعرها؛ سأحاول الإشارة إلى هذه الإمكانيات في نهاية الكتاب من خلال بعض الإشارات المقتضبة. ولكني فشلت في تحقيق أملي الأول. سيبقى كتابي الخيليّ الأول معلّقًا إلى أن أولد مرة أخرى كحصان. ما يحمل القارئ بين يديه الآن ليس كتابًا خيليًا، بل كتاب مؤرخ حول نهاية العصر الذي صنع فيه الإنسان والخيل تاريخًا مشتركًا. أشدد: صنعوا ولم يكتبوا، لأنه قام بعملية الكتابة دائمًا طرف واحد من هذا الزوج، وحياة إنسان واحد غير كافية لقراءة كل ما كتبه الأول عن الآخر.

كنت أظن لمدة طويلة أنه يجدر بي كتابة هذا المؤلَّف للمؤرخين. وكأنه توجّب على إطلاع الزملاء على إهمالهم لهذه الشخصية التاريخية المهمة طوال هذه السنين وعلى خسارتهم لإمكانيات معرفية عظيمة بسبب ذلك. سيكون من دواعي سروري لو قرأ أحدهم كتابي الآن واستفاد منه في بحثه. ولكني كتبته في النهاية—وسأقتبس هنا إهداء غير متواضع—"الى الكل ولا أحد". وهذا ايضًا ليس بصحيح إلا بشكل جزئي فقط. كتبته من أجل أمي التي أحبت الخيول وفهمتها. إن كان سيعجبها الكتاب، فلن اعرف ذلك ابدًا. لقد مرّت عشر سنوات منذ كان باستطاعتي سؤالها عن ذلك.